صورة المرأة في شعر الشماخ بن ضرار الذبياني

The woman's image in the poetry of shammakh bin dinar al dhubyani

ط.سمير خلوفي*
جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله،
(الجزائر)
Samir.kheloufi@univ-alger2.dz

د. محمد بن منوفي
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله،
(الجزائر)
benmanoufimaha82@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/21
تاريخ القبول: 2022/11/12 النشر:2022/11/16

ملخص:
تحاول هذه الدراسة مقاربة النص الشعري، وملامسة معانيه لدى الشاعر المخضرم– الشماخ بن ضرار الذبياني– بهدف الوقوف على مكونات صورة المرأة، وتشكيلاتها التي وظفها في شعره، ومن ثمّ الكشف عن دلالتها المتشبعة بالطاقات الإيحائية المنبثقة من أعماق النّص، ودورها الفعّال في استنطاق الصّورة من خلال السياقات التي وردت فيها، والمعبّرة بالأساس عن رؤية الشّاعر المستوحاة من وحي التجربة الشعرية.
وقد وسمت هذه الدراسة بـ " صورة المرأة في شعر الشماخ بن ضرار الذبياني"
الكلمات المفتاحية: صورة، مرأة، شعر، الشماخ بن ضرار الذبياني.

Abstract :
This study attempts to approach the poetic text and to touch its meaning by one of the veteran poets : shammakh ben dirar al dhybyani ,in the aim of identifying the components of the women's image and its assortments that he employed inn his poetry ,and then revealing its conotations that are saturated by energicalinsperationswichenucing from the depths of the text , and the effective role of these connotations in mainly the poet's vision wich in inspired by the poetic experience.
This stydy is lableled as (The woman's image in the poerty of shammakh Bin Dinar Al Dhubynani
KeyWords: image ;woman ; poetry ; shammakh Bin Dinar Al Dhubynani.

*سمير خلوفي

مقدمة:

كثر الحديث عن المرأة في دواوين الشعراء الجاهليين، وكانت تمثل جزءا من حياتهم، ومن ضمن اهتماماتهم، فقد وصفوا جمالها ببعديه الجسدي والروحي، ذلك أنّهم كانوا يتمتّعون بحاسة ذوق قويّة، وإحساس مرهف، يؤهلهم في معرفة حقيقة الجمال، وأسراره، وبواطنه.

وقد يكون منبع الإحساس بالجمال الأنثوي، والشعور به، هو راجع بالأساس إلى إثبات حضورها، وتأثيرها في مجرى حياتهم من خلال حاجتهم النفسية، والعاطفية إليها، ومؤانستها إياهم، ومشاركتها في أفراحهم وأحزانهم، وهمومهم، وأما في حالة انعدامه وحضوره فستعجز ألسنتهم، وموهبتهم وأقلامهم عن الإتيان بالأوصاف التي تليق بمقامها، ومكانتها، وجمالها.

ولعل الشّعراء الّذين انبهروا بالجمال " أدركوه في الطَّبيعة، وأدركوه في المرأة، وأدركوه في فنّ القول"(الحوفي، د.ت، صفحة 24) وساعدهم على ذلك موهبتهم الفنية، وذكاؤهم في صناعة الصور النموذجية من خلال خيالهم الواسع.

وكان للمرأة حضورٌ بارزٌ، ومميزٌ في الفكر الجاهلي، وقد ارتبط ذكرها بالأساطير، والمعتقدات الدينية الموغلة في القدم، وقد رسموا لها صورا بأشكال مختلفة بوصفها تحمل رمزا " للأمومة أو الخصوبة كالمهاة، والغزالة، والحصان من الحيوان، والنخلة والسمرة من النّبات"(البطل، 1981، صفحة 57). لذلك كان لها النّصيب الأوفر في أشعار الجاهليين.

ولإبراز الجمال الأنثوي الّذي تحظى به المرأة استعان الشّعراء بالتَّشبيهات، ومعظمها مستوحاة من وحي جمال الطبيعة ومواطنه، بغية الوصول إلى المثل الأعلى للجمال، ويسعى هذا البحث الوقوف على صورة المرأة في شعر الشّماخ بن ضرار الذبياني بغية الإجابة عن سؤال جوهري كالآتي:

– ما المصادر التي اعتمد عليها الشاعر في تشكيل صوره؟

وقد تفرّع عنه أسئلة ثانوية:

– لماذا لجأ الشاعر إلى البحث عن الصورة النموذجية للجمال من الطّبيعة وإسقاطها على جمال المرأة المحبوبة إليه؟

– هل استطاع الشاعر أن يجسّد الصورة المثالية للمرأة من خلال توظيف تشبيهاته؟

– كيف صوّر الشاعر الهواجس النفسية لدى محبوبته؟

وللإحاطة بجوانب موضوع صورة المرأة في شعر الشماخ بن ضرار الذبياني ارتأينا أن نجعله في نوعين وهما:

التصوير الحسي، والتصوير المعنوي.

أولا : التَّصوير الحسي:

صوَّر الشَّاعر الجاهلي جمال المرأة في شعره، وجعلها محلَّ الاهتمام في حياته، وانشغل بالتَّغزل بها، وقد شغف في ذكر تفاصيل مظهرها الخارجي ومفاتنه، وكان " أول ما لفت نظره جمال وجهها، وجمال أعضائها، ووصف الجمال الجسدي هو الأمر العام الطاغي"(الجبوري، 1986، صفحة 282)

ولنيل الحظوة من هذا الكائن الأنثوي الذي أغراه وأغواه، كان يسعى دوما في إرضائه، والتّودّد إليه، والتّقرّب منه، وأضفى عليه أجمل ما وقع عليه بصره من الأوصاف " التي يمتزج فيها جمال الطّبيعة بجمال الأنثى، وتبدو الطّبيعة فيها مجلى لجمال الحبيبة"(الزواوي، 2000، صفحة 99)

اعتمد الشاعر في إبراز جمال محبوبته على التّشبيه، فتارة يشبهها بالشّمس، والقمر، والبدر، ويشبهها بالظبي، والغزال، والدّرة تارة أخرى " وهي في مجموعها صفات نموذجيّة تصوّر المثل الأعلى للجمال في المجتمع البدوي"(الهادي، د.ت، صفحة 288).

وقد درج الجاهليون على مقاييس محدّدة للجمال الأنثوي، وكانت درجة البراعة، وقوة الوصف تتفاوت من شاعر إلى شاعر آخر وفي طريقة تشكيلاته الفنيَّة في قالب شعري متميّز مستوح من نسج خياله، وترجمان لمشاعره وعواطفه.

و نذكر فيما يلي بعض النّماذج الشعرية التي ارتبطت بوصف جمال المرأة في شعر الشماخ بن ضرار الذّبياني.

1-1/وصف عيني المرأة:

إنّ العينين هما أوَّل شيء يلفت انتباه الشّاعر الجاهلي في وجه المرأة وملامحها، وهما أكثر الحواس جاذبية، وأقواهما تأثيرا وحيوية، ونشاطا؛ لأن" كل ما في العين يتحرك وبشكل مختلف، الجفون تختلج، والأهداب ترتعش، والمقلة تدور، والحواجب تعلو وتهبط وإنسان العين يضيق ويتّسع وعدسة العين داخل المقلة تنقبض وتنبسط، وكثير من هذه الحركات الظاهرة"(الحطاب، 2003، صفحة 54).

تدل في مجملها على جملة من "الإشارات التي تعبر عن لغة الجسد، حيث يطلق على العينين لقب "نوافذ الروح"(غانم، 2015، صفحة 128)، وتعد العين مصدرًا من مصادر السحر تشد الشعراء نحو محبوباتهم؛ لذا نجدهم أكثروا الحديث عنها وعن فعلها في قلوبهم، وتفننوا في وصف نظرتها التي أدّت بالإيقاع بهم في حبائلهنّ؛ إذ لا يستطيع الناظر إلى العينين أن يحول بصره عنهما، ولا يقوى على مقاومة سحرهما.

ويبدو أنّ الشماخ من عشاق العين الكحلاء الطبيعيّة البعيدة عن الجمال المصطنع، والمتكلف، لذا نجده في معرض حديثه عن عيني محبوبته وقد استهواه شكلهما ولونهما، ووقف عند هذا العضو الجميل وخصّه بأبيات شعرية جميلة.

ومن شواهده قوله من (الطويل)(الذبياني، 1968، صفحة 162):

أَرَتْنَا حِيَاضَ المَوْتِ ثُمْتَ قَلَّبَتْ لَنَا مُقْلَةً كَحْلاَء ظَلَّت تُدِيرُهَا

كَأَنَّ غَضِيضـــًا مِنْ ظِبَاءِ تَبَالَةٍ يُسـاقُ بِهِ يوم الفراق بعيرُهَا

لقد أبدع الشَّماخ في تشكيل هذه الصّورة في هذين البيتين؛ إذ شبّه عيني محبوبته بعيون الظّباء الجميلة فتبدو وهي في غاية الكمال والتّمام كأنّها لوحة فنيّة تأسر قلوب النّاظرين.

ولعلّ هذا هو " شكل العين المناسب لأعضاء المرأة العربية، وهو المتسع على أن تكون دعجاء كحلاء"(الحوفي، د.ت، صفحة 43) وتزداد رونقا وانجذابا، وخاصة إذا كانت بيضاء البشرة، فتبدو وكأنّها نور الشمس في جمالها ولهذا السبب نجد أن معظم الشعراء العرب سرعان ما تستجيب قرائحهم لوصف هذا الكائن العجيب، ويتغنون به في كثير من المناسبات من خلال قصائدهم.

2-1/ وصف لون بشرة المرأة :

أعجب الشّاعر الجاهلي بلون بشرة محبوبته، وكان "لون النساء المرغوب فيه عندهم البياض لذيوع الاسمرار وكثرته وندرة البياض وقلّته"(الهاشمي، 1960، صفحة 95)

وقد دلّ هذا اللّون في قصائدهم "على الإشراق والإضاءة"(عمر، 1997، صفحة 41)وقد يقترن في وعي بعض الشعراء "بين رضا المرأة، وابتسامها والمزنة والبرق، الذي يعني العطاء في النهاية"(الجهاد، 2007، صفحة 299)

وإذا أمعنّا النّظر في الجمال الأنثوي، وجدنا وجه المرأة ولونها محلّ انتباه معظم شعراء الجاهلية، وقد وصفوا وجهها بتعابير مباشرة، أو من خلال الصور البيانية الموحية، فشبهوا الوجه الجميل في إشراقه، ونقاء لونه بالشمس، وبالبدر والمصباح، والنور، وغيرها.

وللّون الأبيض أهميّة عند الشّماخ، فقد وصف به جمال وجه محبوبته ونصاعته.

ومن شواهده قوله من (الطويل)(الذبياني، 1968، صفحة 130):

علَى أُمِّ بَيْضَاءَ السَّلاَمُ مضاعفًا عَدِيدَ الحَصَى بَيْنَ حِمْصَ وَشَيْزَرَا

وَقُلْتُ لَهـَا: يَـا أُمَّ بَيْضَـاءَ إِنَّـهُ كَـذَلِكَ بَيْنَـا يُعْرَفُ المَرْءُ أُنْكِرَا

يفصح شاعرنا من خلال هذين البيتين عن مدى إعجابه ببياض وجه محبوبته التي استهوته وشغلت ذهنه، وملكت قلبه ففي نضارة وجهها متعة، وراحة نفسية، وعامل مساعد في القضاء على الكآبة والإقبال على حبِّ الحياة ومحفز له في تحمل الصّعاب؛ لذا نجده يوظف أسلوب التلطف، والتودد في سبيل نيل رضا محبوبته والتقرب إليها والفوز بحبّها.

ويحاول الشاعر أن يحقق لمحبوبته كلّ عناصر الجمال، والقيم الأنثويّة الحسية، وينفي عنها كلّ صفات القبح، ومن روائع هذه الصورة هو تكرار اللون الأبيض مرتين في البيتين الأول والثاني للدلالة على الصورة النموذجية لدى محبوبته، والتأكيد عليها، ولتعزيز هذه الصورة، وتقويتها أتى الشاعر بالتشبيه البليغ في قوله (أم بيضاء).

وعلى هذا يكون جمال البشرة متناسقا ومتكاملا، فهو ذو لون أبيض مشرق، وضاء كالبدر في حسنه وبهائه، ومن شواهده قوله من (الكامل)(الذبياني، 1968، صفحة 262):

فِي وَاضِحٍ كَالبَدْرِ يَوْمَ كَمَالِهِ فَلَمِثْلُهَا رَاعَ الْفؤَادُ وَرَاقَا

وصف الشاعر وجه محبوبته بالبدر في حسنه، وجماله، وبهائه، الذي يسحر قلوب الألباب، وخاصة حين تبتسم، فكأنّ الشمس قد ألقت عليه ضياءها، وجمالها، وبهذا يكشف الشاعر عن توقه في كلّ مرّة إلى رؤية هذا الوجه الذي سيطر على عواطفه، وكيانه، ولا يكاد يفارقه في خياله.

ويبدو أنّ هذا الوصف ناجم عن شدّة تعلّقه بها، لذا نجده يتخيّر لها من الأوصاف ما تحاكي به روائع جمال الطّبيعة ومناظرها السّاحرة؛ طلبًا لرسم صورة نموذجيّة تخصها دون غيرها.

ومما يزيد في إبراز القيمة الجمالية لهذه الصورة هو اعتماد الشاعر على أداة التشبيه بحرف (الكاف) في قوله (كالبدر) وأداة التشبيه بالاسم (مثل) في قوله (فلمثلها).

3-1/ وصف ثَغر المرأة :

تفنّن الشّاعر الجاهلي في وصف جمال ثغر محبوبته وانتقى له معظم صوره من مظاهر الطبيعة، ومشاهدها؛ إذ شبهه بزهر الأقحوان.

وأما ريقه فطعم ذوقه ممزوج بالخمرة، والمسك والكافور، أو بعسل مختلف ألوانه، والقاسم المشترك بين هؤلاء الشعراء هو شغفهم بحبّ الأسنان البيضاء المفلّجة، وغالبًا ما ترتبط بذكر حلاوة الريق وعذوبته، غير أنّهم يتفاوتون في التعامل مع هذه الصورة، وفي ذكر تفصيلاتها.

أمّا الشّماخ فنجده يعطينا صورة جميلة، يصف فيها ثغر محبوبته، وما فيه من الأسنان والريق كأنه سائل لذيذ المذاق، ممزوج بالماء البارد، شرابه ينعش الروح والجسد، وهو يكنى عنه بقوله (عذب المذاقة) أو (باردا براقا).

ومن صوره قوله من (الكامل)(الذبياني، 1968، صفحة 26):

عَزَم التَّجَلُّدَ عن حبيب إذّ سَلاَ عنه فأَصبح ما يَتُوق مَتَاقا

وَتَعَرَّضَت فَأَرَتْك يَوْمَ رَحِيلِهَا عَذْبَ المَذَاقَةِ بارِدًا بَرَّاقَا

لقد رسم الشّاعر من خلال هذه الصورة معالم جمالية، تجسدت في جمال ثغر محبوبته وذلك للدلالة على حسنه وبهائه، ونقائه، شملت رائحته الطيبة الزكية، وحلاوة ريقه وعذوبته، ولمعان أسنانه البيضاء الصغيرة المفلّجة الجميلة وهي صفة محببة في المرأة أغرم الشماخ بها، لذا نجده يكرر هذه المعاني، و الصور الحسية في عدد من قصائده، وفي كل مرة يتحفنا بعنصر جمالي جديد، يجلو به جمال ثغر محبوبته، وقد أسهم الجناس الاشتقاقي في إعطاء هذه الصورة قيمة فنية من خلال الفعل المضارع (يتوق) واسم المكان (متاقا)، وذلك رغبة من الشاعر في توكيد الفعل؛ للدلالة على مكانة المحبوبة والاشتياق إليها، والحنين إلى ذلك المكان الذي يذكره بلقياها.

وفي صورة أخرى يستلهم من الطبيعة مما تقع عينه، فهو في هذه الحال (أقحوان مفلج) أي؛ أن صورة أسنانها كالأقحوان مفلجة، والفلج قيمة جمالية في فم محبوبته، تغري عيون الناظرين .

ومن شواهده الأخرى أيضا قوله من (الطويل)(الذبياني، 1968، صفحة 75):

تَمِيحُ بِمِسْوَاكِ الأَرَاكِ بَنَانُهَا رُضَابَ النَّدَى عن أقحوان مُفَلَّجِ

يصف الشّاعر الأراك الّتي تتّخذه محبوبته كمسواك لتجميل أسنانها، فيبدو صافي البياض زاهي اللون، وهذه إشارة واضحة على مواظبتها لاستعماله في سائر الأيام، والأوقات، وفي بيت آخر يرسم لفمها صورة يكون فيها أبيض الأسنان كالأقحوان، وأسمر اللثة كالإثمد، وهذه الصورة الجمالية تأسر قلب شاعرنا، وتسيطر على كيانه، وعقله.

ومن شواهده قوله من (الطويل)(الذبياني، 1968، صفحة 262):

لَهَا أُقْحُوَانٌ قَيَّدَتْه بِإِثْمِدٍ يَدٌ ذات أصداف يُمَارُ نَؤُورُهَا

كأنَّ حَصَاناً فَضَّها القَيْنُ غُدْوَةً لَدَى حيثُ يُلْقَى بالفِناءِ حَصيرُها

كأنَّ عيونَ النَّاظرين يَشُوقُها بها عَسَلٌ طابتْ يَدَا مَنْ يَشُورُها

ويشبّه الشّاعر هذه الأسنان البيضاء في جمالها وتشتّتها أوراق الأقحوان الأبيض في جماله، وحسنه، وبهائه، ولمعانه الذي ينبت في كثيب الرمل الطيب النّدى، فيبدو جميل المنظر باهي الطلعة، وهو من أحسن الأوصاف التي استعان بها الشاعر في وصف ثغر محبوبته لما يحمله من دلالات الطهارة، والعذوبة، واللذة، والنقاء.

وقد جاءت هذه الصورة متناغمة ومنسجمة مع الصور التشبيهية التي رسمها الشاعر لمحبوبته من خلال تكرار أداة التشبيه بحرف (كأن) مرتين؛ للتوكيد على أن لجمالها وعطرها وشكلها تأثيرا على النفوس، فجمال هذه المرأة يشعرك بلون من اللذة والسرور، فحينما تنظر العيون إليها تتمتع بمذاق جمالها الذي يشبه العسل في حلاوته، وكلنا يعرف أن أداة الذوق هي اللسان، ولكنه ناوب بين الحواس، وأعطى هذه الصفة إلى العيون.

إن روعة جمالها وأثره في القلوب قد جسده الشاعر في شيء ملموس يمكن تذوقه وهو العسل.

4-1/ وصف شعر المرأة :

تحدّث الشّاعر الجاهلي عن شعر المرأة ومواطن جماله من خلال شكله ولونه اللذين فُتن بهما، ولعل المواصفات التي تروقه " هو الكثيف المسترسل الأسود الفاحم الذي فيه خصل كثيرة ملتفة"(الهاشمي، 1960، صفحة 98).

ولا يخفى تناسب اللون الأبيض مع لون الشعر الأسود الطويل، المنسدل على كتفي المحبوبة يحف ضفاف وجهها فيزداد حسنا وجمالا، وتناغما، وروعة.

ومن نماذجه قوله من (البسيط)(الذبياني، 1968، صفحة 253):

مَاذَا يَهِيجُكَ من ذكرِ ابْنَةِ الرَّاقِي إذْ لا تَزَالُ على هَمٍّ وإشْفَـاقِ

قَامَتْ تُرِيكَ أَثِيثَ النَّبْتِ مُنْسَدِلاً مِثْلَ الأَسَاوِدِ قَدْ مُسِّحْنَ بِالفَاقِ

يرسم الشّاعر بريشته صورة سحرية مبرزا من خلالها جمال محبوبته ومفاتنها، فقد شبه شعرها في طوله، وكثرة كثافته والتفافه بأثيث النبت، وأما في سواده، وبريقه، ولمعانه فهو كالحيّات المدهونة بالزّيت. الذي ينسجم مع لون العينين السوداوين.

لقد استطاع الشاعر أن يلم إلماما سريعا بأحوال محبوبت، وذلك في منتهى الوصف والدقة، فهي حسناء بيضاء منعمة مترفة ترى نعيمها في طراوة جسدها، ومفارق شعرها الذي تعلُه الدهون.

ومن محاسن جمال هذه الصورة أنها تشكلّت من مصدرين متناقضين الحسناء والثعبان، فشعر محبوبته الغزير المنسدل، وما يثيره في النفوس من الروعة والجمال، وهو مصدر بشري، بينما صورة الثعبان الأسود الذي يلمع نتيجة انعكاس الشمس على جسمه، وكأنه طُلي بالزيت، وما يثيره من بواعث الخوف وهو مصدر حيواني، كما استخدم الشاعر

أسلوبين بلاغيين هما: الاستعارة والتشبيه، فقد استعار الشاعر مصدرا نباتيا حينما شبَّه شعر محبوبته بالنبات الكثيف الملتف، وأتى بأداة التشبيه بالاسم (مثل) ليصل إلى درجة التناقض بين الجمال والقبح.

1-5/ وصف جيد المرأة :

عشق الشّاعر الجاهلي وسامة جيد محبوبته وطوله وهو كفيل " بإبراز مفاتن وجهها، ومحاسن نحرها وصدرها ومنسجما مع أسل خديها، واسترخاء شعرها على متنها، وأن يكون إلى طوله لدنا مدمجا سهل التّثني والانعطاف"(الحوفي، د.ت، صفحة 46)

وأما الشّماخ فقد أعجب بالجيد الطويل في حسنه وجماله، ممّا يظهر جمال الشعر المنسدل فوق عنقها الطويل.

فيبدو مكتمل الخلق ،جميل لاشية فيه ،وقد يكون أكثر انجذابا إذا كان دون حلي لا يخفيه شيء.

ومن شواهده قوله من (البسيط)(الذبياني، 1968، صفحة 112):

دَارُ الفَتَاةِ الَّتِي كُنَّا نَقُولُ لَهَا يَاظَبْيَةً عُطُلاً حُسَّانَةَ الجِيـدِ

كَأنّهـا وابـنَ أيّـامٍ تُرَبِّبُـهُ مِنْ قُرَّةِ العيْنِ مُجْتَابَا دَيَابُـودِ

شبّه الشّاعر جيد محبوبته في استوائه وطوله، متكئا على أوصاف، وتشبيهات تعارفت عليها العرب؛ إذ شبهه بجيد الظبية حين تمدّ عنقها لتبحث عن وليدها.

ومن الملاحظ من خلال هذه الصورة التي رسمها الشماخ لمحبوبته إعجابه الشّديد بالعنق الطويل، وما يثيره في نفسه من أشواق وأفراح وسعادة حينما يراها ماثلة أمامه.

ولإبراز هذه الصورة، وتقويتها، وظف شاعرنا التشبيه البليغ في قوله (يا ظبية) المشفوع بالنداء لأهمية المحبوبة، بالإضافة إلى استعماله صيغة المبالغة فعَّال في قوله (حسَّانَة الجيد) طلبا للتوضيح والتأكيد على علاقة المشابهة بين جمال محبوبته وجمال الظبية.

1-6 / وصف خصر المرأة :

وصف الشّاعر الجاهلي جمال خصر المرأة ومفاتنه ببراعة ودقّة الملاحظة من خلال انتقاء الكلمات المناسبة التي تضفي على قصيدته جمالا، وبهاء، وقوة في التّعبير عن الغرض.

و قد أبدع الشّماخ أيضا في رسم شكل خصر محبوبته وأبدى إعجابه به، ومن شواهده قوله من (الطَّويل) (الذبياني، 1968، صفحة 75):

هَضِيمَ الحَشَالَا يَمْلَأُ الكَفُّ خَصْرُهَا وَيَمْلَأُ مِنْهَا كُلُّ حِجْلٍ وَدُمْلَجِ

في هذا التّصوير الرّائع تظهر محبوبته في قمّة اللّياقة والرّشاقة والحيويّة بخصرها الرّقيق المعتدل الجميل، ممشوقة، خفيفة اللحم ضامرة البطن، ويبدو من خلال هذا الوصف الدقيق براعة الشاعر وخبرته ومعرفته بمواطن الجمال في المرأة ومنابع حسنه.

ولا شك فإن الطباق الحاصل بين الفعلين المضارعين (لا يملأ) و(يملأ) قد تولدت عنهما طاقة وحركة خلقت أثرا جماليا منبثقا من الثنائية الضديَّة منحت الأسلوب براعة وروعة.

ثانيا : التَّصوير المعنوي:

اهتمّ الشّاعر الجاهلي بأخلاق المرأة وطهارتها، وتغنّى بها في قصائده الشّعرية، فكلّما تزيّنت بتاج العفاف والحياء كانت أكثر انجذابا إلى قلب الرّجل ومن المعلوم " أنّ المرأة الحرّة لم تكن ممتهنة عندهم بل كانت في المكان المصون"(ضيف، 2018، صفحة 241).

وتتعدّد الصور المعنويّة لدى المرأة، بين حبيبة معشوقة مدللة، وامرأة هاجرة، وامرأة ناشزة، وامرأة مغرورة، وامرأة متمردة، وامرأة كاذبة.

ولعلّ الصّورة المثاليّة الّتي تجسّدت في سلوك هذه المحبوبة، هي التي جعلتها تتبوّأ المكانة العالية في نفوس المعجبين حتى أصبحت مصدرا من مصادر الإلهام والإبداع لدى الشّعراء وهذا " كلّه مرهون بما تمدّه النّفس الشّاعرة أولا من تنوّع فنّي وفق حالة الشّعراء النفسية وما يستشرفونه من طبيعة التّجربة المعيشية والتي تمّ اختبارهما في ميادين العلاقة الإنسانية الرّحبة مع المرأة"(محمد، 2018، الصفحات 79-80)

ولا شكّ أن هذه الصورة التي تتّسم بالفضائل والأخلاق جاءت نتيجة ذلك الانطباع المتأتّي عن الإحساس العميق بالجمال الروحي الذي تتمتع به هذه المحبوبة، ذلك أن الشاعر راح يرسمه في عشق طاغٍ لا يعترف بحدود الواقع.

1-2 وصف حياء المرأة:

ومن الصفات المعنوية التي أحبها الشَّمَّاخ في محبوبته حياؤها، فهي عنده لا ترفع رأسها عن موضع قدميها، ولا تتأخَّر في مشيها، بل تتجه إلى حاجتها وقصدها مباشرة، وإن اضطرت لمحادثة غريب عنها، فإنها توجز في كلامها، ولا تطيله، وهذا في نظره "دليل على تصوّنها، وعفّتها، وتمنّعها، وأنوثتها، وقد أعجب به العرب ؛ لأنّ أخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة، والإشادة بالمرأة المستكملة لصفات الأنوثة"(الحوفي، د.ت، صفحة 67).

ومن شواهد هذه الصورة قول الشماخ من (البسيط)(الذبياني، 1968، صفحة 272):

بـانت سُعَادُ فَنَومُ العَينِ مَملولُ وكانَ مِنْ قِصَرٍ من عَهْدها طُولُ
بَيْضَاءُ لَا يَجْتَوِي الجِيرَانُ طَلْعَتَه وَلاَ يَسُلُّ بِفِيهَـا سَيْفَهُ القِيــلُ

فهي تظهر في صورة بيضاء الوجه، بهية الطّلعة، يشتاق الجيران لرؤيتها، لا تفشي أسرار الناس، ولا تطعن في أعراضهم، ولا تدخل في معارك كلامية مع النساء بعيدة عن الغيبة والنّميمة، قليلة الكلام، رزينة متّزنة، حسنة الحديث.

ومن كمال صفات محبوبته أنّها تغضّ بصرها لشدّة حيائها وعفّتها ذلك أنّ "العرب أميل إلى المرأة المتصوّنة البعيدة المنال التي تلهب القلب حبّا في عزّة وشمم وتسامٍ، أمّا المرأة الجريئة المتهالكة على الرّجل فإنّها لا تثير الاّ طلاب الجسد"(الحوفي، د.ت، صفحة 68)، وهي في نظره تتفوق بهذا السلوك المحمود على غيرها من النساء، وتجعلها محبّبة لديه؛ إذ أنّها تبعث السعادة والراحة والاطمئنان والثقة في نفسه، وقد حققت هذه المحبوبة من خلال روح المسؤولية التي تتجلى في معاني الجلال، والحسن ، والكمال، وإلى جانب تلك الصورة المشرقة عن محبوبته، فإنها أيضا تظهر في صورة إيجابيّة حيث تتجنب مغازلة الرجال لها، فهي حريصة في المحافظة على بيتها وزوجها وأهلها حتى أصبحت مضربًا للأمثال بين القبائل والعشائر.

فهذه الفتاة البيضاء التي يتمنى الجيران رؤيتها، قد أسبغتها العفة، والترفع عن الغيبة على جمالها طعمًا خاصًا، فمجلسها طيّبٌ لا تسمع فيه لغوًا ولا تأثيمًا، وقد أمعن الشاعر في تصوير قبح الغيبة، والنميمة ولغو القول، حينما صوَّر هذا اللون مع القدح الذي يمارسه الآخرون، كأنه سيوف مشهَّرة تعبث بالناس فتكًا وطعنًا، فجرح اللسان أنكى من جرح السنان كما عبَّر عنها في قوله (ولا يسل بفيها القيل).

وفي موضع آخر يوضح الشماخ هذه الصورة ويؤكد على أخلاق المرأة الحميدة قوله من (الطويل)(الذبياني، 1968، صفحة 75):

وَإِنْ مَرَّ مَنْ تَخْشَى اتَّقَتْهُ بِمِعْصَمٍ وَسبٍّ بِنَضْحِ الزَّعْفَرَانِ مُضَرَّجِ
وَتَرْفَعُ جِلْبَـابًـا بِعَبْلٍ مُوَشَّـــــمٍ يَكُنُّ جَبِينًا كَانَ غَيْرَ مُشَــجح

يصوّر الشّاعر سلوك محبوبته وقمة أدبها وذلك لما "تتسم به من الحياء والعفّة البالغين، حتى إنها لتّتقي من تخشى نظراته الجريئة بيدها وخمارها وجلبابها"(الهادي، د.ت، صفحة 229)، وهي علامة من علامات الرزانة ورجاحة العقل وحسن الخلق، وهدوء الطباع.

2– 2 / وصف عفاف المرأة ونزاهة شرفها:

ولعلّ من أحسن الأوصاف المعنوية التي وصف بها الشاعر محبوبته تلك التي تضمّنت معاني النزاهة والشرف، واللّتان تدلاّن على رجاحة عقل المرأة وأصالة معدنها.

ومن شواهده قوله من (الطويل)(الذبياني، 1968، صفحة 136):

تَقُـولُ وَقَدْ بَلَّ الدُّمُـوعُ خِمَـارَهَـا أَبَى عِفَّتِي وَمَنْصِبِي أَن أُعَيَّرَا

كأنَّ ابنَ آوى مُوثَقٌ تحتَ غَرضها إذَا هُوَ لَمْ يَكْلِمُ بنَابَيْه ظفَّرَا

لقد استطاع الشّاعر أن ينقل لنا من خلال هذين البيتين ذلك المشهد الدّرامي المهيب الذي اعترض سبيل تلك المرأة العفيفة الطّاهرة، الشّريفة، وما تتمتّع به من المنزلة الرفيعة في أهلها وقومها فمركزها الاجتماعي لا يسمح لأحد أن يشتمها ولا يسمح لها أن تنزل إلى مستوى الشتم والقذف، ولذلك فقد بلّلت الدّموع خمارها حزنا على الموقف الذي وضعت فيه.

لقد حاول الشّاعر أن يفصح بلسان حالها عن تلك المشاعر النّفسية المؤلمة الممزوجة بالخوف، والرّهبة، والصّدمة والحزن الشّديد، وفي الوقت نفسه قطع ألسنة الحاسدين المتربصين بها، والدّفاع عن كرامتها وعزّة نفسها اللتين تمنعانها من ارتكاب ما تعيّر به بين قبائل العرب.

ومن الخصال الّتي أحبها شاعرنا الشّماخ في محبوبته أنّها تأنف من مجالسة الرّجال، ولا تريد الاختلاط بهم.

ومن شواهده الأخرى في موضوع أيضا قوله من (البسيط)(الذبياني، 1968، صفحة 253):

مَـاذَا يَهِيجُكَ لاَ تَسْلَى تَذْكُـــرُهَ وَلاَ تَجُــودُ بِمَوْعُــودٍ لِمُشْتَاقِ

هل تُسَلِّيَنَّك عنها اليومَ إذْ شَحَطتْ عَيْـــرَانَةٌ ذاتُ إرْقَــالٍ وإعْنَــاقِ

وصف الشّاعر سلوك محبوبته أنها تأبى أن تواعد الرجال، ولا تسمح لهم بالتّلاعب بمشاعرها وكرامتها، ولا تريد مضيعة الوقت في اللّغو واللّهو، فهي إنسانة جادّة في حياتها، وسويّة في سلوكها.

3–2/ وصف نسب المرأة:

يعدّ النّسب الشريف الأصيل مدعاة إلى الافتخار والاعتزاز، ومكسب كبير لدى محبوبته، ذلك أنّها من خيرة النّساء النّقيات من العيوب، والطاهرات من الدنس، والعفيفات الشريفات من الفحش ما ظهر منه وما بطن وأجدادهنّ

من قبائل صناديد العرب الأشراف، والأخيار الأكارم، كما أنّ جمالها الأنثوي مرتبط بالترف، والغنى؛ لذا تبوأت صورتها في الشعر العربي القديم مكانًا عاليًا، فالنعيم والرخاء واليسر من دعائم الجمال، ومسبباته.

ومن شواهده قوله من (الطويل)(الذبياني، 1968، صفحة 74):

كنـانيـةٌ إلاَّ أنَلْهـــــا فَإنّهـا على النَّأى من أهل الدَّلاَلِ المُولِّجِ

وَسِيطَةُ قَوْمٍ صَالِحِينَ يَكُنُّهَا مِنَ الحَرِّفِي دَارِ النَّوَى ظِلُّ هَوْدَجِ

مُنَعَّمَة لَمْ تَلْقَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ وَلَمْ تَغْتَزِلْ يَوْمًا عَلَى عُود عَوْسَجِ

صوّر الشّاعر محبوبته أنّها ذات أصل، وشرف، ونسب، وسمعة طيبة، ومنعّمة، وثريّة، لم تذق مرارة الحياة، وبؤسها ذلك " أنّ صاحبته لا تغتزل على عود عوسج، وهو يريد بلا ريب أن يعبّر عن أنّها مصونة، مترفة، لا تعمل في حاجة نفسها، بل يخدمها الآخرون"(الهادي، د.ت، صفحة 278)، وهو دلال يعجب الشاعر ويبهجه ويسّر به.

4– 2 / وصف غرور المرأة:

تتجلى هذه الصورة في بعض النّساء اللائي أعمى الغرور أبصارهنّ بسبب ما تتمتع به من الحسن والجمال، وإظهار مفاتنها، ومن ثمَّ تحوّل من نعمة إلى نقمة، ووسيلة تتخذه بعضهنّ لجلب المعجبين، مستغلين في ذلك سذاجة عقولهم.

ومن صوره قوله من (الطويل) (الذبياني، صفحة 136):

بها شَرَقٌ من زعفران وعنبر أطَارتْ منَ الحُسنِ المحبَّرا

يحاول الشماخ أن يأتي بصورة نقيض الصورة الأولى التي ألفناها عنده بذكر محاسن المرأة، مبرزًا في ذلك بعض التصرفات الشّاذة التي لم تألفها المرأة العربية الأصيلة، ليس من العدل أن نجعل النّساء في درجة واحدة، ويبدو أنّ الشاعر غير راضٍ عن سلوكها المتهور نتيجة خروجها عن تقاليد القبيلة وقيمها المتجذرة في القدم، والتي توارثتها الأجيال عبْر حقب تاريخية طويلة.

5–2 / وصف تمرّد المرأة:

لعل هذه الصورة أبشع وأشنع كونها تصف سلوك المرأة التي تعشق الرجال الغرباء، محاولة منها التودّد إليهم، ومتمنيّة لقاءهم ومجالستهم في لهو، ولغو غير معهود بين نساء قبائل العرب.

ومن صوره قوله من (الطويل) (الذبياني، صفحة 108):

وإنّكَ من قومٍ تحنُّ نساؤهم إلى الجانب الأقصى حَنينَ المنَائحِ

لقد وصف الشماخ نساء بني سُليم، وهم في حقيقة الأمر خصومه أنّهنّ دائمات الحنين إلى الغرباء، والتقرّب منهم، والإعجاب بالحديث معهم، والتغزل بهم، وسعيهنّ للقاء بهم، وهي تفعل ذلك بدافع من عواطفها المشتعلة في صدورهن، وهي تميل إلى كلّ ما جارَاهنّ في أحلامهنّ، وسايرهنّ في أذواقهنّ.

2-6 / وصف كذب المرأة:

يعدّ الكذب أحد الصفات السلبيّة التي عانى منها الشاعر تجاه محبوبته، وتعدّ من أهم الأسباب المؤدية إلى الفراق، والانفصال، وعدم الاستقرار النفسي بين المتحابين، ومَدعاة للبغضاء والتنافر والشحناء.

ومن شواهد هذه الصورة قول الشماخ من (الكامل) (الذبياني، صفحة 261):

صَدَع الظَّـــعائنُ قلبَهُ المُشْتاقَا بحزيز رامةَ إذْ أرَدنَ فـراقَا

مَنَّينَـه فَكَـــــذَبْنَ إذْ مَنَّينـــــَه تلكَ العُهودَ وخُنَّهُ المِيثَاقَا

ولقَدْ جَعلنَ لَهُ المُحَصَّبَ موعِدًا فلَقَد وَفَيْنَ وَعَاقهُ مَاعَـاقَا

استطاع الشماخ إماطة اللثام عن خوالج النّفس لدى المرأة وما تنطوي عليه أعماقها، فعرف كيف يصور صفة نقض عهدها، واخلاف عهدها، ويكشف كذبها ومراوغتها، فاتخذ موقفًا يعبّر من خلاله عن استيائه، وغضبه واستنكاره من سلوكها غير المقبول.

وهذا مما لا شك فيه يوحي بتأزم العلاقة بين الشاعر ومحبوبته التي وعدته بلقائه، في مكان معلوم، ومعاناته من إخفاق في حبّه في حياته، ممّا يثير في نفسه الشعور بالقلق، والإحباط، وعدم الرضى عن واقعه.

الخاتمة:

يمكننا في نهاية هذه الدراسة المتواضعة أن نجمل نتائجها في النّقاط الآتية:

– تنوّعت مصادر الصّورة في شعر الشماخ، وتعددت بين (صورة حسية، وصورة معنويّة).

– كان لجمال الطّبيعة، ومناظرها السّاحرة دور فعّال في نحت صوره وإسقاطها على جمال المرأة المحبوبة عنده.

– أجاد الشّاعر رسم صورة المرأة، فكانت لوحة فنيّة معبّرة وجامعة بين التّشبيه ودلالته.

– بدا أثر البيئة البدوية، وقساوتها واضحا من خلال خشونة الألفاظ، وصعوبتها.

– جاءت الكثير من صور الشماخ نتيجة إخفاقاته في الحياة.

– أبرز أغراض الشاعر الوصف، وأبرز الألوان البيانية التي اعتمد عليها التشبيه، وكانت تشبيهاته متنوعة، ومتعدّدة الأنواع والأهداف.

– كان الخيال الواسع، والمعنى الواضح، والتشبيه الدقيق، والفطرة، والموهبة، والذوق الفني من أبرز عوامل نجاح شعر الشماخ.

–اعتمد الشاعر على خياله في إيجاد صور فنية رائعة تثير المتلقي عند حديثه عن المرأة.

– معايير الجمال المادي عنده جاءت مطابقة لما هو وارد في الشعر العربي القديم، كما برز الجمال المعنوي في عفتها وشرفها ونسبها، وقلّة كلامها وحيائها.

– برع الشاعر في تصوير خوالج نفسية المرأة، وما يجول في خواطرها ومختلف عواطفها.

●**مصادر البحث و مراجعه:**

I. المصادر:

1 –الشّماخ بن ضرار الذّبياني، ديوانه، تح: صلاح الدّين الهادي، دار المعارف، القاهرة، مصر (د.ط)، 1968م.

II. المراجع:

1- أحمد محمد الحوفي، الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).

2- أحمد مختار عمر، اللغة واللون، عالم الكتب للنـــشر والتوزيع، القاهرة، مصـــر، ط2، 1997م.

3- خالد الزّواوي، تطور الصورة في الشّعر الجاهلي، مؤسسة حورس الدّوليّة للنّشر والتّوزيع الاسكندريّة، مصر، ط1، 2000.

4- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي – العصر الجاهلي – دار المعارف، القاهرة، مصر، ط42، 2018م.

5- صلاح الدّين الهادي، الشّماخ بن ضرار الذّبياني، حياته وشعره، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د، ط)، (د، ت).

6- علي البطل، الصورة في الشّعر العربي، دار الأندلس للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1981م.

7- علي الهاشمي، المرأة في الشّعر الجاهلي، مطبعة المعارف، بغداد، العراق، (د.ط)، 1960م.

8- فاضل بنيان محمد، الفضاء الشعري للقصيدة الجاهليّة، دار دجلة للنشر والتّوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2018م.

9- محمد حسن غانم، فن قراءة لغة الجسد، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، مصر، ط2، 2015م.

10- محمد جميل الحطاب، العيون في الشّعر العربي، مؤسّسة علاء الدّين للطّباعة والتّوزيع، دمشق، سوريا، ط3، 2003م.

11- يحي الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط5، 1986م.

12- هلال الجهاد، جماليات الشعر العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.